جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

خروج الأمر المتيقن مخرج الشك والاحتمال لطائفه وأسراره في القرآن الكريم

الدكتور

علي عبد الكريم مبروك

المدرس في كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنين بالقاهرة- جامعة الأزهر

العدد الثالث والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م
الجزء التاسع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٩م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فهذا بحث بعنوان: **خروج الأمر المتقين مخرج الشك والاحتمال لطائفه وأسراره في القرآن الكريم**، وقد تناولت في هذا البحث بعض الآيات التي جاءت على هذا النمط من التعبير، وقمت بتحليلها وإظهار ما حوته من أسرار، والكشف عما تضمنته من معان وأغراض، مستعينا في ذلك بما تيسر لي من كتب التفسير واللغة والبيان، وحتى تكمل الفائدة وتتضح الصورة درست تلك الآيات في ضوء السياق العام الذي وردت به، فلم أكتف بدراسة الشاهد فحسب، وإنما درست ما سبقه ولحقه مما له صلة به وعلاقة، لما للسياق من دور شديد الأهمية في إيضاح المعنى وإبراز المراد، وقد تبين لي من خلال هذه الدراسة أن القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل هذا الأسلوب من الكلام -أعني إخراج المتيقن في صورة المشكوك فيه- لما له من أثر بالغ في المحاورة والمناظرة وإفحام الخصم، وذلك باستبعاد كل ما عساه أن يغضب الخصم أو يسيء إليه، بحيث لا يبقى أمامه إلا التفكر فيما بين يديه إن كان يريد الوصول إلى الحق، ثم إن هذا الأسلوب منه ما يكون لقصد التلطف في الخطاب لاستدراج الخصم، ومنه ما يكون لقصد المبالغة في إثبات المعنى أو نفيه، ومنه ما يكون لقصد التهديد والوعيد، ومنه ما يكون لقصد التعريض، ومنه ما يكون لقصد العتاب، إلى غير ذلك من الأغراض، وقد تناولت هذه الأغراض بشيء من التفصيل كلا في موضعه، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خدمة لكتابه، وخالصا لوجهه، ومتقبلا عنده، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

د/ علي عبد الكريم مبروك

المدرس في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر

Email: al.karim102@yahoo.com

Abstract

Praise Be to the Almighty and peace and blessings Be Upon the Messenger of Allah :

This is a research paper entitled: Expressing the Truth in the form of Skeptical Rhetoric: Its Purposes and Goals in the Holy Quran". I have dealt with some of the verses that use this type of expression, analyzed, and showed the purposes and the secrets behind such implementation of this rhetoric device using the available Arabic grammar and rhetoric books in addition to the Holy Quran interpretation books in light of the general divine texts and their relevant contexts. I have studied not only the verses, but their precedents, subsequent verses and their relevance as well, since the context plays a very important role in clarifying the meaning, either the surface or the implied.

I have discovered in this study that the Holy Qur'an often uses this rhetoric devices- Expressing the truth in the form skeptical rhetoric - either due to its impact on moderating the debate through the assumption of the arguer's role by agreeing with the other side of the argument in terms of hedging or as a form of exaggeration of the truth. I have worked on this research in some detail out of my desire to serve the Holy Book and the Sunnah of the Prophet Peace and Blessings Be Upon Him.

Dr. Ali Abdul Karim Mabrouk
Lecturer at the College of Islamic and Arab Studies for Boys in Cairo - Al-Azhar University
Email: al.karim102@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، فهدى به الناس إلى أقوم السبل، وأخرجهم من الظلمات ونجاهم من الفتن، وجعله رحمة وشفاءً لما في الصدور، وحجة على الخلق إلى يوم البعث والنشور، وحفظه من التحريف والتغيير على مر الزمان وتتابع الدهور، وأصلي وأسلم على من اصطفاه الله لحمل رسالته وتبليغ وحيه، وأيده بالمعجزات والآيات، وجعل كتابه مهيمنا على الكتب، ورسالته خاتمة للرسالات. وبعد:

فإن القرآن الكريم أصل البلاغة ونبعها، يجري ماؤه في أغصانها، ومنه تستقي قواعدها، وهو حاكم عليها وليس محكوما بها؛ ولم لا وقد نزل في قوم أقاموا للكلمة والبيان أسواقا، فبهرهم ببلاغته، وحارت عقولهم في فصاحته، فخضعت له أعناقهم، وذلت رقابهم؛ لما اختص به من أسلوب عجيب، ونسج فريد، وتركيب بديع، فلما لم يجدوا لأسلوبه من أساليبهم نظيرا، لم يزيدوا على أن قالوا: سحر مبين، ورميهم له بالسحر شهادة له لا عليه، فهذا دليل على بلوغه قمة الإعجاز، وبلوغهم غاية العجز، وإذا بلغ هؤلاء غاية العجز، فعجز غيرهم أولى، كما قال سبحانه: ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] أي: فإن لم يستجب هؤلاء فغيرهم أحق بأن لا يستجيب. وإنه لشرف لأي باحث وبحث أن يستعمل في خدمة هذا الكتاب المعجز بإظهار شيء خصائصه، والوقوف على بعض مراميه، وتدبر معانيه، وهذا شرف لست أدَّعيه، فتلك غاية لا

(١) سورة هود الآية:١٤

يدعيها أمثالي فضلا عن أن يصلوا إليها، ولكنه جهد المقل واجتهاد العاجز، وهو إلى جانب كونه شرفا للباحث والبحث، إلا أنه مسلك وعر، تصطك فيه الركب، وتنزلق فيه الأقدم، ويزل فيه الفحول والأفذاذ، فكيف بمن هو مثلي؟! ولكني أسأله سبحانه أن يقيني الزلل، وييسر لي السبيل، وأن يوفقني لما فيه رضاه.

ومن بين الظواهر التي تسترعي الانتباه في الكتاب العزيز، ظاهرة تخريج الأمر المتيقن في صورة من الشك والاحتمال، وهذا يعد لونا من ألوان الخروج عن مقتضى الظاهر، وهذا الخروج لا شك يكون لأغراض بلاغية وأسرار بيانية، منها ما هو ظاهر بيّن، ومنها ما يحتاج إلى إعمال فكر وتأمل، وقد جاءت تلك الأغراض متناثرة في بطون كتب التفسير والبلاغة والإعجاز واللغة، وسأحاول من خلال هذا البحث جمع ما تفرق، وتلمس السر لهذا الخروج، لاسيما وأن إبراز المتيقن في صورة المشكوك فيه، يحدث في ذهن المخاطب نوعًا من الاضطراب؛ للفت انتباهه واستثارة ذهنه وعقله؛ ليفكر أو ليبحث عما وراء الحجب والأستار، فينشط عقله للوقوف على مرمى المتكلم وغرضه.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وفصلين، وخاتمة، وفهارس.

أما **المقدمة**: فبينت فيها أهمية الموضوع وخطته ومنهج دراسته.

وأما **التمهيد**: فتناولت من خلاله جهود علماء اللغة والبيان في الكشف عن هذه الظاهرة.

وأما **الفصل الأول**: فجاء تحت عنوان: ما خرج مخرج الشك والاحتمال وأثره في إقناع المخاطب ودحض شبهة المعاند.

وأما **الفصل الثاني**: فتحدثت فيه عن الأسرار البلاغية واللطائف البيانية لما خرج مخرج الشك والاحتمال، ووقع هذا الفصل في خمسة مباحث وبيانها كالآتي:

المبحث الأول: ما خرج مخرج الشك والاحتمال تلطفًا في الخطاب واستدراجًا للمخاطب.

المبحث الثاني: ما خرج مخرج الشك والاحتمال تحريرًا للمعنى ومبالغةً فيه.

المبحث الثالث: ما خرج مخرج الشك والاحتمال لقصد التهديد والوعيد.

المبحث الرابع: ما خرج مخرج الشك والاحتمال لقصد التوبيخ والتعريض.

المبحث الخامس: ما خرج مخرج الشك والاحتمال قصدًا للعتاب وهزًا للنفوس.

ثم جاءت **الخاتمة** مشتملة على أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

وأما **الفهارس** فهي على النحو الآتي:

أولًا : فهرس المراجع.

ثانيًا: فهرس المحتويات.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل لوجهه خالصًا، ولقارئه مرضيا.

تمهيد

جهود علماء اللغة والبيان في الكشف عن هذه الظاهرة.

لقد تنبه علماؤنا لهذه الظاهرة في الكتاب العزيز، وأشاروا إليها في مؤلفاتهم، فعقد الرماني (ت٣٨٤ه) في كتابه " النكت " بابا للمبالغة، وجعلها على ستة أضرب، وجعل الضرب الخامس منها: إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج، ومثل له بالعديد من الشواهد من نحو قوله تعالى:﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[١] وقوله: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾[٣] حيث جاء على التسليم أن لهم مستقرا خيرا من جهة السلامة من الآلام، لأنهم ينكرون إعادة الأرواح إلى الأجسام، فقيل على هذا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا. و جعل منه كذلك قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[٤] على التسليم أن أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء. [٥]

وتعرض ابن جني (ت٣٩٢ه) في الخصائص لهذه الظاهرة، حيث عقد بابا في إقرار الألفاظ على أوضاعها الأُول، ما لم يَدْعُ داعٍ إلى الترك

---

(١) سورة سبأ، الآية:٢٤

(٢) سورة الزخرف، الآية:٨١

(٣) سورة الفرقان، الآية:٢٤

(٤) سورة الروم، الآية:٢٧

(٥) ينظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: الثالثة، ١٩٧٦م. ص١٠٥

والتحول، وتناول في هذا الباب حرف العطف " أو " وذكر أن أصل وضعها أن تكون لأحد الشيئين أين كانت وكيف تصرفت، وإن كان بعضهم قد خفي عليه هذا من حالها في بعض الأحوال، حتى دعاه إلى أن نقلها عن أصل بابها، وذلك أن الفراء قال: إنها قد تأتي بمعنى بل، وأنشد بيت ذي الرمة:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى .. وصورتها أو أنت في العين أملح[١]

وقال: معناه: بل أنت في العين أملح. وجعْلُها هنا على بابها من الشك أحسن معنًى وأعلى مذهبًا؛ لأنه لو أراد بها معنى " بل " فقال: بل أنت في العين أملح لم يف بمعنى " أو" في الشك؛ لأنه إذا قطع بيقين أنها في العين أملح كان في ذلك سرف منه وأدعى إلى التهمة في الإفراط له، وإذا أخرج الكلام مخرج الشك كان في صورة المقتصد غير المتحامل ولا المتعجرف. فكان أعذب للفظه، وأقرب إلى تقبُّل قوله، ألا تراه نفسه أيضًا قال:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل ... وبين النقا آأنت أَمْ أُمّ سالم[٢]

فكما لا يشك في أن كلامه ههنا خرج مخرج الشك لما فيه من عذوبته وظرف مذهبه، فكذلك ينبغي أن يكون قوله: (أو أنت في العين أملح) "أو" فيه باقية في موضعها وعلى شكلها. وهذا مذهب الشعراء: أن يظهروا في هذا ونحوه شكًّا وتخالجًا ليروا قوة الشبه واستتكام الشبهة، ولا يقطعوا قطع اليقين البتة فينسبوا بذلك إلى الإفراط والغلو، وإن كانوا هم ومن بحضرتهم

---

(١) ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي بيروت، ط: الثانية١٤١٦هـ. ١٩٩٦م. ص٦٢٤

(٢) ديوان ذي الرمة، ص٢٧١

ومن يقرأ من بعد أشعارهم يعلمون أن لا حيرة هناك ولا شبهة، ولكن كذا خرج الكلام على الإحاطة بمحصول الحال.

وعليه قول الشاعر:

بالله يا ظَبَيَاتِ القَاعِ قُلْنَ لَنَا: ... ليلاي منكنّ أَمْ ليلى من البَشَرِ؟ (١)

وإذا كانوا يخرجون الكلام مُخْرَجَ الشك وإن لم يكن هناك شك لم تخرج " أو" عن أصلها.(٢)

وتعرض العلوي (ت٧٤٥ه) كذلك لهذا اللون من الكلام في ثنايا حديثه عن التهكم وأضربه، وأوجه وروده، فذكر أن التهكم يرد على خمسة أوجه، ومثل للوجه الرابع منها بقوله تعالى: ﴿ رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ ﴾(٣) حيث أورده على جهة التقليل، وأخرجه مخرج الشك، والغرض به التكثير والتحقيق في حالهم تلك؛ لأنهم في تلك الحالة يتحققون ويقطعون بأنهم لو كانوا على الإسلام قطعا ويقينا لما ينالون من العذاب ويتحققونه من النكال، ولا خلاص عن ذلك إلا بالإسلام، فلهذا قطعنا بتحقق المحبة والود للإسلام، وإنما أخرجه مخرج التهكم والاستهزاء.(٤)

ومن النوادر في هذا الباب ما روي عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه قال لبعض من تشكك في البعث والآخرة: إن كان الأمر كما تقول: من أنه لا قيامة فقد تخلصنا جميعا، وان لم يكن الأمر كما تقول فقد تخلصنا،

---

(١) ديوان العرجي، جمع وتحقيق د/ سجيع جميل الجبيلي، دار صادر بيروت، ط: الأولى١٩٩٨م، ص٢٤١

(٢) ينظر: الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الرابعة، جـ٢/٤٦١

(٣) سورة الحجر، الآية:٢

(٤) الطراز ليحيى بن حمزة العلويّ ، المكتبة العصرية – بيروت، ط: الأولى١٤٢٣هـ، جـ٣/٩١، ٩٢

وهلكت، فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده، وهذا الكلام وان خرج مخرج الشك، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه وقلة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه، مع أن المناظر على ثقة من أمره، وهو نوع من أنواع الجدل(١)

ويقول الإمام الغزالي معقبًا على تلك الواقعة: "ولا ينبغي أن تظن أن هذا تشكيك منه في اليوم الآخر ولكنه زجر على حدّ جهل المخاطب القاصر عن معرفة ذلك بطريق البرهان." (٢)

وقد صاغ أبو العلاء في ذلك أبياتًا مشهورة يقول فيها:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسار عليكما(٣)

وغير خاف حديث البلاغيين عن أداة الشرط "إن" وأنها في الأصل تستعمل في الشرط الذي لا يقطع بوقوعه، وقد يرد الكلام على خلاف الأصل باستعمالها في مقام القطع بوقوع الشرط لأغراض معينة.(٤)

ومن هنا ندرك أن لتلك الظاهرة جذورا في تراثنا، وهي لون من ألوان الخروج عن مقتضى الظاهر للفت انتباه المخاطب، ولتحقيق أغراض معينة يقصد إليها المتكلم.

---

(١) ينظر: حاشية الشهاب (المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي) دار صادر، بيروت،جـ٤/٤٦

(٢) ميزان العمل للإمام أبي حامد الغزالي تحقيق : د.سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط: الأولى، ١٩٦٤ هـ. ص١٨٩

(٣) اللزوميات لأبي العلاء شرح وتحقيق/ مجموعة من المحققين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٤م، جـ٣/١٣٣

(٤) بغية الإيضاح للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط: السابعة عشرة، جـ١/١٧٠،١٦٩

الفصل الأول

ما خرج مخرج الشك والاحتمال

وأثره في إقناع المخاطب ودحض شبهة المعاند.

مدخل

تعد عملية الإقناع من أشد العمليات صعوبة وأكثرها تعقيدا، لاسيما إذا كان المخاطب على الطرف النقيض لما يتبناه المتكلم من أفكار، وما يعرضه من معان، فمثل هذا المخاطب لا تجدي معه الأساليب التقليدية، فهو في حاجة إلى تبني خطاب خاص، خطاب يحفز العقل ويوقظ الفطرة، ويثير حركة النفس والقلب لإزالة ما قد علق بهما من شبه.

والخطاب القرآني من خلال لغته قريب التناول وواضح للجميع، لأنّه تفرد بمناهج أعلى من الخطابة، كما أنّه أعلى من الشعر والسجع، وإن بني على حروف البشر وألفاظهم فهو أسمى من كلام البشر. وقد حاول علماء البلاغة حصر أوجه الاستدلال التي دار عليها حوار النّص القرآني، والتي كانت أهم مساعد على فهم الخطاب فذكروا أوجها كثيرة (كالتعميم والتخصيص والمقابلة) تناسبا مع فهم النّاس، إذ منهم من يصدق بالجدل، ومنهم من يصدق بالبرهان ،ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية.(١)

ومن أهم ما يميز الخطاب القرآني أنه واضح الدلالة، ظاهر الحجة، بالغ التأثير، يتسم بالتنوع، مراعيا في ذلك حاجات المخاطب وإمكاناته العقلية، يسوق الدليل تلو الدليل، والبرهان عقب البرهان، يخاطب الفطرة، ويحث على استخلاص العبر من الأمم السالفة والحضارات البائدة.

---

(١) ينظر: الخطاب الحواري في القرآن، لروبجي لخضر- بحث بمجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري بالجزائر، ع١٥ ص١ والبحث على موقع دار المنظومة

ومما تفرد به الخطاب القرآني إفساح المجال للمعارض وإرخاء العنان للخصم؛ ليعبر عن وجهة نظره دون مصادرة لرأيه، أو إساءة لشخصه، وقد تجلت هذه السمة في مواضع شتى ومواطن عدة، وليس أدل عليها مما وقع من إبليس الذي جاهر بالمعصية وفسق عن أمر ربه، إلا أن ذلك لم يمنعه من أخذ الفرصة ليعبر عما في نفسه، كذا في مواقف كثيرة نجد القرآن يعرض أقوال الخصوم وحججهم بكل أمانة، ويفسح لهم المجال لينطقوا بكل ما سولت لهم أنفسهم، ولم يحجر عليهم، ولم يخف شيئًا مما لاكته ألسنتهم، ولكنه في الوقت ذاته لم يترك تلك الأكاذيب دون إجابة، بل رد عليها أبلغ رد، ودحضها حتى لم تقم لها قائمة.(١)

وخطاب القرآن موجه في المقام الأول للعقل ويرتقي به إلى أعلى مراتبه، ويدعوه للتفكر؛ ليصل إلى القناعة، وليصبح قادرا على التمييز والمقايسة والاستنتاج والمقارنة، وهي من أهم أدوات الإقناع قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(٢) فالقناعة تأتي ثمرة للدليل والبرهان المتولد من النظر، ولم يكتف القرآن بمخاطبة العقل، وإنما وضع الإنسان بكل حواسه ووعيه في المناخ العلمي، ولفت نظره إلى الأشياء من حوله، ودعاه إلى النظر والتأمل فيها.(٣)

---

(١) ينظر: أدب الحوار في الإسلام لفضيلة الإمام الأكبر/ محمد سيد طنطاوي، نهضة مصر ١٩٩٧م، ص٣١ وما بعدها

(٢) سورة سبأ الآية:٤٦

(٣) من تقديم د/ عمر عبيد حسنة، لكتاب: من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د/ معتصم بابكر مصطفى، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالدوحة، ط: الأولى١٤٢٤ه ٢٠٠٣م، ص٩

أدوات الإقناع فيما خرج مخرج الشك والاحتمال

وإذا ما تأملنا المواضع التي خرج فيها اليقين مخرج الشك والاحتمال في القرآن الكريم، نجد تلك الأدوات الموصلة للقناعة ظاهرة بوضوح وجلاء، وتتمثل تلك الأدوات فيما يلي:

أولًا: مجاراة الخصم وإرخاء العنان له.

إن القرآن يتيح الفرصة كاملة للخصم، ويعرض وجهة نظره بأمانة، ويحكي أقواله ومزاعمه بصدق دون اجتزاء أو تغيير، ثم يأتي على تلك المزاعم بما يفندها، وذلك بعرض البراهين والأدلة التي إذا ما تفكر فيه الخصم لم يسعه إلا الإقرار والتسليم، ثم يترك الخصم لنفسه، ويضعه أمام مسؤولياته ليقرر ما يشاء، فإن كان باحثا عن الحق طالبًا له فها هو الحق بين يديه مدعوما بالدليل، وإلا فيكفى أن الحق قد تبين، وأن المعاند قد كشف زيغه وزهق باطله، وظهر للجميع عناده وتمسكه بالباطل، فلا يغتر الناس بعد بباطله، ولا ينخدعون بأكاذيبه.

ولنأخذ على سبيل المثال قوله تعالى من سورة الزخرف: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[1] فأورد الكلام على جهة الشك والاحتمال مجاراة للخصم، والآية الكريمة وردت على سبيل الفرض والتمثيل مبالغة في نفي الولد. [2]

---

(١) سورة الزخرف، الآية:٨١

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٧ هـ. جـ٤/٢٦٥،٢٦٦

ومع أن المناظر على ثقة من أمره، إلا أنه يخرج كلامة على هذا النحو من التردد والشك؛ حتى لا يترك لخصمه موجب تغيظ واحتداد في الجدل، ويسمى في علم المناظرة إرخاء العنان للمناظر، ويُسَمَّى كذلك الْكَلَامَ الْمُنْصِفَ. (١)

والمعنى: لو كان لله ولد كما زعمتم لكنت أول من يعبده، ولكن تنزه عن أن يكون له ولد، ثم جاءت الآيات لتعقب على هذا الزعم، ولتأكد على نفي الولد، وتنزه الله عن اتخاذه، فقال تعالى: ﴿ سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ وتلك الآيات تعرض الأدلة على تنزهه – سبحانه – عن اتخاذ الولد، وتلك الأدلة فيها مخاطبة للعقل والفطرة، إذ كيف يستقيم في العقل والفطرة أن ينسبوا الولد لرب السماوات ورب الأرض ورب العرش، وفي تكرير كلمة رب نداء للفطرة السليمة، فإنها لا شك تنكر ذلك وتنفيه، ثم أكدت الآيات على أنه – سبحانه – هو وحده الإله في السماوات والأرض، وعنده وحده علم الساعة، وإليه وحده المرجع والمآل، وفي تقديم الظرف في قوله: ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ

(١) ينظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م. جـ ١٩٢/٢٢

السَّاعَةِ﴾ والجار والمجرور في قوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ما يؤكد على وحدانيته، ثم إن تلك الآلهة المزعومة من الأصنام وغيرها بما فيها الولد الذي نسبوه إليه – سبحانه – لا تملك الشفاعة عنده، ثم عاد مرة أخرى ليخاطب العقل والفطرة بقوله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ثم ختم بالوعيد والتهديد؛ ليعودوا إلى أنفسهم فيقروا بالحق ويذعنوا له.

وتلك الأدلة التي ساقها القرآن لإثبات وحدانية الله وتنزهه عن الولد والشريك، إنما جاءت بعد أن ساق حججهم ومزاعمهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ(٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ ﴾ وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ على قريش: ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ امتعضوا ، فقال عبد الله بن الزبعرى: يا محمد، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبىّ وتثني عليه خيرا وعلى أمه، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما. وعزير يُعبد. والملائكة يُعبدون، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا، وسكت النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى﴾ ونزلت هذه الآية، والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه إِذا قَوْمُكَ، قريش من هذا المثل يَصِدُّونَ: ترتفع لهم جلبة

وضجيج فرحا وجزلا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله صلى الله عليه وسلم بجدله. (١)

فحكى القرآن تلك المزاعم من كون النصارى يعبدون عيسى وأمه، واليهود يعبدون عزيرا، وأن أصنامهم خير من عيسى وعزير وغيرهما، وأن آلهتهم إذا كانت حصبا لجهنم، فإن عيسى وعزيرا وكذا الملائكة سيكونون حصبا لجهنم إذ اتخذها الناس آلهة من دون الله، وبعد أن سجل القرآن مزاعمهم أتى عليها بما يكشف زيفها ويبين عورها، ورد عليها بما يدحضها ويقضي عليها، وجلل هذا الرد بإخراج الكلام على جهة الشك والفرض والاحتمال، وبذلك يكون قد استدرجهم وجاراهم حتى لا يترك لهم سبيلا إلا الإذعان.

ثانياً: تحفيز العقل

كذا من الأدوات التي استخدمها القرآن في إقناع الخصوم تحفيز العقل وتنشيط الذهن للتفكر في الأمر، ومن ثم الوصول إلى الحق، وتحفيز العقل يكون بعدة وسائل منها:

أ- طرح الأسئلة

فكثيرا ما نجد القرآن يطرح الأسئلة العقلية التي تحتاج إلى التدبر وإعمال الفكر، وتلك الأسئلة سرعان ما تثير ذهن المخالف فيقف أمامها عاجزا، لاسيما إذا كان الجواب معلوما لا يمكنه إنكاره، والحقيقة ظاهرة لا يمكنه إخفاءها، ولنتأمل في ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

(١) الكشاف جـ٤/٢٥٩

قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (١) فقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ مما خرج فيه الكلام مخرج الشك، وقد سبق بسؤال عن المتصرف في الأرزاق والمتحكم فيها، وهذا السؤال ليس له إلا إجابة واحدة هو الله، فإذا كان هناك اعتراف بأن الرازق هو الله، فلا شك إذن في أن المهتدي هو من اتبع سبيله، والشقي هو من أعرض عنه، وهذا إثبات لهداية المؤمنين وضلال الكافرين من أبلغ طريق وأوجزه، إذ كيف يسوغ أن يعترفوا بأنه الرازق ولا يعترفون بأنه الهادي، وأن من اتبع هداه هو المهتدي.

ولنتأمل كذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَيْفَ أَخافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) فقوله تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مما خرج فيه الكلام مخرج الشك والاحتمال، وقد سبق باستفهام تعجبي، وسؤال مثير للذهن والعقل، فكيف يصح عقلا أن يخاف إبراهيم عليه السلام من أحجار لا تضر ولا تنفع، ولا يخاف هؤلاء من الله تعالى الإله الحق، وإذا تبين للعقل أن هذا الأمر مرفوض، تبين له من هو أحق بالأمن. ولذا جاء الجواب على سبيل القطع ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

ب- إقامة البراهين

ومن أبرز الوسائل التي اعتمد عليها القرآن في مجادلة الخصوم سوق الأدلة وإقامة البراهين على القضية المراد إثباتها أو نفيها، وتلك البراهين لا

(١) سورة سبأ الآية:٢٤

(٢) سورة الأنعام الآية:٨١

شك محفزة للعقل وداعية للتفكر، ولنتأمل في ذلك قوله تعالى: ﴿ قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنا يَا إِبْراهِيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [١] فهم قد استفهموا عن الفاعل على سبيل البحث والإنكار، وتوجهوا بالسؤال إلى إبراهيم لأنه هو من كان يذكر آلهتهم بسوء. [٢]

وجاء رد إبراهيم – عليه السلام- بغير ما يتوقعون، فقال الله حكاية عنه: ﴿قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ﴾ وهذا من معاريض الكلام، فلم يقصد إبراهيم نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها بأسلوب تعريضى يبلغ به غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط: أأنت كتبت هذا، وصاحبك أمّىّ لا يحسن الخطّ، فقلت له: بل كتبته أنت، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به، لا نفيه عنك وإثباته للأمّىّ ، لأنّ إثباته- والأمر دائر بينكما- للعاجز منكما استهزاء به وإثبات للقادر. [٣]

ثم جاء قوله: ﴿إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وهو مما خرج فيه الأمر المتيقن مخرج المشكوك فيه، فإبراهيم – عليه السلام- متيقن من عدم قدرتهم على النطق،

---

(١) سورة الأنبياء الآيات من ٦٢-٦٧

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت ١٤٢٠هـ. ٤٤٦/٧

(٣) ينظر: الكشاف ١٢٤/٣

إلا أنه أخرج كلامه على هذا النحو من الشك والاحتمال؛ مبالغة في تبكيتهم وإلزامهم بالحجة، وليعودوا إلى أنفسهم فيدركوا حقيقة معبوداتهم التي لا تستطيع حتى أن تخبر عمن ألحق بها الضرر، فضلا عن أن تنتصر لنفسها، وبالأحرى أن تنتصر لغيرها.

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم، رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة، لا من ظلمتموه حين قلتم: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة،. أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام إلى مجادلين عنه، حين نفوا عن آلهتهم القدرة على النطق. أو نكسوا على رؤوسهم حقيقة، لفرط إطراقهم خجلا وانكسارا وانخزالا مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام، فما أحاروا جوابا إلا ما هو حجة عليهم. (١)

وبعد هذا البرهان قدم لهم برهانا آخر، فقال الله تعالى حكاية عنه: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ ﴾ وبدأ هذا البرهان باستفهام إنكاري إذ كيف استقام لديهم أن يعبدوا ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا، فهذا ما يأباه العقل ويرفضه الطبع، ولذا ختم هذا البرهان كما بدأه بالتوبيخ والإنكار، فقال متضجرا ومتأففا: ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾

جـ- الانتقال من البديهيات والمسلمات إلى النتائج محل الشك والإنكار

البداهة: أول كل شَيْء وَمَا يفجأ من الْأَمر و(فِي الفلسفة) وضوح الأفكار والقضايا بِحَيْثُ تفرض نَفسهَا على الذِّهْن، والبديهة: المعرفة يجدهَا الْإِنْسَان فِي نَفسه من غير إِعْمَال الْفِكر وَلَا علم بِسَبَبِهَا. والبديهة قضية

(١) ينظر: الكشاف٣/١٢٤

اعترفَ بها ولا يُحتاج في تأييدها إلى قضايا أبسط منها، مثل: أنصاف الأشياء المتساوية متساوية.(١)

وكثيرا ما نرى القرآن الكريم يعتمد على تلك البديهيات والمسلمات التي لا تحتاج إلى إعمال فكر ولا ينكرها المخاطب؛ ليبني على ما هو مسلم لدى المخاطب ما هو موضع شك أو إنكار لديه، وليصل من إثبات ما هو معلوم لديه إلى إثبات ما هو مجهول عنده، وفي هذا تنشيط للعقل وتنبيه للذهن؛ ليفكر في القضية المعروضة، ولينظر في الأدلة المطروحة، لاسيما تلك الأدلة البديهية التي غفل عنها أو تناسها. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾(٢) فهم يؤمنون بأن الله هو الخالق، ولكنهم ينكرون البعث، فخاطبهم الله تعالى على قدر عقولهم، وأخرج الكلام مخرج الشك والاحتمال للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج، فعلى التسليم أن أحد الأمرين من الخلق والإعادة أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء. فلا شك أن الإعادة تكون أهون من الخلق، وإذا ثبت له الخلق فقد ثبتت له الإعادة من باب أولى؛ لأنها أهون من بدأ الخلق فيما يعتقدون، وإلا فالكل هين على الله. (٣)

والقرآن كما نرى انتقل مما هو مسلم إلى ما هو محل شك وإنكار لديهم، فقطع بذلك شكهم وأزال إنكارهم.

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة جـ١/٤٤

(٢) سورة الروم، الآية:٢٧

(٣) ينظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: الثالثة، ١٩٧٦م. ص١٠٥

ثالثاً: مخاطبة الفطرة

قال ابن عاشور: " الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسداً وعقلاً، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية وَهُوَ الْمُسَمَّى فِي عِلْمِ الِاسْتِدْلَالِ بِفَسَادِ الْوَضْعِ. " (١)

و قال ابن عطية: " والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة، أي: الفطرة: أنها الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان، التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله، و يستدل بها على ربه، ويعرف شرائعه ويؤمن به." (٢)

ومن الوسائل التي اعتمد عليها القرآن في إقناع خصومه مخاطبة الفطرة وذلك عن طريق سرد النعم والتذكير بها، وإجابة الدعاء، ورفع البلاء، وكشف الضر، وإذا تأملنا تلك الآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ نجد أنها قد سبقت بجملة من الآيات التي تسرد النعم وتذكِّر بها؛ لتدخل من خلالها إلى قلب المخاطب، ولتنبه فطرته، فيقول سبحانه: ﴿ فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها

(١) التحرير والتنوير، جـ٢١/٩٠

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ. جـ٤/٣٣٦

وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾

وكل هذه الآيات فيها تنبيه للفطرة واستنهاض لها، والفطرة السليمة لا يسعها أمام هذه النعم الظاهرة إلا أن تثوب لرشدها، وتنفض غبار الشرك عنها، وتؤمن بوجود بعث وجزاء، ولذا عقب سبحانه على تلك الآيات التي بين فيها نعمه وأظهر فيها فضله على عباده، عقب عليها بقوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فبذرة الإيمان موجودة في القلوب، وسرعان ما تهتز بها القلوب وتربو إذا ما تواردت عليها النعم، فتورق تلك البذرة وتزهر، وتنفض الغبار الذي كان يعلوها، والتراب الذي كان يغطيها شاء من شاء وأبى من أبى.

الفصل الثاني

ما خرج مخرج الشك والاحتمال:
أسراره البلاغية ولطائفه البيانية.

مدخل

جاءت أساليب القرآن في هذا الباب على غاية التفنن والإبداع، تلطفًا في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتأليفًا لقلوبهم، ولفتًا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب، وبالنظر في كتب التفسير واللغة، وبتأمل الآيات التي خرج فيها الكلام مخرج الشك والاحتمال، نجد أن هذا الخروج جاء لتأدية أغراض كثيرة ومتنوعة، وأكثر هذه الأغراض شيوعا هو توبيخ المعاند والتعريض به، ومجاراة الخصم لاستدراجه وإلزامه بالحجة حتى ينقاد ويذعن، ولتقرير المخاطب وبيان قلة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه، إلى غير ذلك من الأغراض، وفيما يلي أتناول تلك الأغراض بشيء من الشرح والتفصيل، سائلا الله تعالى المعونة والتوفيق.

المبحث الأول:

ما خرج مخرج الشك والاحتمال تلطفاً في الخطاب واستدراجاً للمخاطب.

تتلون طرق الحجاج في القرآن، وتتنوع أساليبه في مخاطبة المعاندين ومناظرة المخالفين، ومن بين تلك الطرق التي اعتمدها التلطف في الخطاب، واستدراج المخاطب بإخراج ما هو متيقن في صورة من الشك والاحتمال، فيقطع بذلك الطريق عليه ليعود إلى نفسه فيقر بالحق ويذعن له، وهذا هو جوهر البلاغة ولبها.

وهذا ما نبه عليه ابن الأثير حيث ذكر أن مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها.(١)

ومن شواهد هذا النوع قوله تعالى:﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾(٢) فالنبي صلى الله عليه وسلم يخاطب قومه خطابا عقليا، ويحاورهم حورا منصفًا، فهو- صلى الله عليه وسلم- موقن بأنه على الحق والهدى، وأن قومه في غي وضلال، إلا أنه أخرج كلامه في صورة من الشك والتردد؛ مجاراة لهم حتى يتفكروا فيما بين أيديهم من أدلة وشواهد لا سبيل إلى إنكارها أو الطعن فيها، فلا مناص لهم إذن من الإقرار والتسليم

---

(١) ينظر: المثل السائر لابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت جـ٢/٦٤

(٢) سورة سبأ، الآية:٢٤

جاء في معاني القرآن للأخفش: " فليس هذا لأنه شك، ولكن هذا في كلام العرب على انه هو المهتدي. وقد يقول الرجل لعبده "احَدُنَا ضَارِبٌ صاحِبَه" فلا يكون فيه إشكال على السامع أن المولى هو الضارب." (١)

وقد ذكر الرماني هذه الآية ضمن شواهد الضرب الخامس من أضرب المبالغة، بإخراج الكلام مخرج الشك؛ للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج.(٢)

والآية الكريمة ترشدنا إلى أدب عال من آداب الحوار والمناظرة، ذلك أن أحد المتناظرين إذا رمى صاحبه بالخطأ يغضبه، وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر، وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض، أما إذا أخرج كلامه مخرج المتردد في القضية الباحث عن الحق مع يقينه فيما عنده، فإن الخصم يترك تعصبه، ويجتهد في النظر ليصل إلى الحق.(٣)

فاستدراج الخصم طريقة من طرق الحجاج الذي هو بديل عن العنف، إذ يمكن أن نسعى إلى تحقيق النتيجة نفسها باعتماد إحدى وسيلتين: العنف أو الخطاب، واعتماد هذه الوسيلة أو تلك هو الذي يجعلنا ندرك على أحسن وجه الفرق ما بين حرية المعتقد والإكراه، وغني عن البيان أن القرآن هو من هذه الناحية حجاج صرف، لا لكونه خطابا حواريا فحسب، وإنما لأنه يدعو بصريح اللفظ إلى نبذ العنف.(٤)

---

(١) معانى القرآن للأخفش، تحقيق: د/هدى محمود قراعة، مكتبة: الخانجي، القاهرة، ط:الأولى، ١٤١١هـ. ١٩٩٠م. جـ٢/٤٨٤

(٢) النكت للرماني ص١٠٥

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٢٠هـ . جـ٢٥/٢٠٥ بتصرف

(٤) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية لعبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط: الثالثة ٢٠٠٧م. ص٤٤

وهذا ضرب من الملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، كقولك: الله يعلم أن أحدنا على حق، وأن الآخر على باطل، ولا تعين بالتصريح أحدهما، ولكن تنبه الخصم على النظر حتى يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل.(١)

وفي إخراج الكلام مخرج الشك تلطف بهم داع إلى الإيمان إذا وفقوا له.(٢)

فالأدلة واضحة، والبراهين ساطعة، وبأدنى تأمل فيها يمكنهم أن يصلوا إلى الحق، فلم يبق إلا صدق العزم منهم، والتوفيق من الله لهم. فالمطلوب منهم أنْ يعمِلوا عقولهم لِيميِّزوا مَنْ مِن الفريقين على الهدى ومَنْ على الضلال، فاللفظ هنا جاء على الإبهام؛ لأنّ المشركين إذا فكروا فيما هم عليه عند سماع هذا الكلام الباعث لهم على الفكر، علموا أن النبيّ والمسلمين على الهدى، وأنّهم هم على الضلال، فبعثهم ذلك على الإسلام. (٣)

وكأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يرتضي حكومتهم في هذه المسألة، وما ترك لهم رسول الله الحكمَ إلا وهو واثق أنهم لو تجردوا من الهوى لعرفوا أن الحق معه. (٤)

---

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، تحقيق: د/ عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط: الأولى ١٤١٦هـ. جـ٢/١٦٦

(٢) ينظر: تفسير الجلالين، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى، ص٥٦٧

(٣) ينظر: أمالي ابن الشجري، تحقيق: د/ محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى ١٤١٣هـ. ١٩٩١م. جـ٣/٧٣ بتصرف

(٤) ينظر: تفسير الشيخ الشعراوي، مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧م جـ١٧/١٠٤٣٨

وقد نبهت الآيات السابقة على تلك الأدلة الموصلة إلى الحق فقال سبحانه: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ(٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وتلك الأدلة فيها خطاب للعقل والقلب معا، ودعوة للتفكر في شأن تلك الآلهة المزعومة التي عبدوها من دون الله، فهي لا تملك لنفسها شيئا فضلا عن أن تملك لغيرها، حتى إنها لا تستطيع أن تجيب دعاءهم فضلا عن أن ترزقهم أو تشفع لهم.

ثم ذيل هذه الأدلة بتلك العبارة ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فدل بذلك على أنه أراد التعريض بضلالهم، وليس الشك فيما عنده، إذ من المعلوم لكل عاقل أن من عبد الذي يخلق ويرزق وينفع ويضر هو الذي على الهدى، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر هو الذي على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى وهم المسلمون، وفريق الضلالة وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح. (١) والتعريض هنا أبلغ من التَّصريحِ؛ لجريانه على سَنَنِ الإنصاف المُسكتِ للخَصمِ الألدِّ.(٢)

فالآية إذن على جهة الإنصاف في الحجاج والتعريض، كما يقول القائل: أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وأنّ صاحبه كاذب. والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، إنّ أحد الفريقين لمهتد والآخر ضال. وفي هذا

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط: الأولى١٤١٤هـ. جـ٤/٣٧٣

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، جـ٧/١٣٢ بتصرف

تعريض بضلالهم وكذبهم وهو أحسن من التصريح، فالتعريض والتورية أوصل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفلّ شوكته.(١)

وفي هذا التعريض تلطف في الخطاب ووصول إلى المقصود بلفظ غير شنيع. (٢) وفيه كذلك مداراة للخصم واتقاء لشره ومكره، خاصة إذا علمنا أن هذه الآية الكريمة نزلت بمكة وأمر المسلمين يومئذٍ ضعيف.(٣)

وهناك من ذهب إلى أن " أو" بمعنى " الواو" فيكون من باب اللف والنشر، والتقدير: وإنا لعلى هدى، وإياكم في ضلال مبين، فأخبر عن كل بما ناسبه.(٤)

كذا من الشواهد التي خرج فيها الكلام مخرج الشك والاحتمال لقصد التلطف في الخطاب واستدراج الخصم للإقرار والإذعان، قوله تعالى: ﴿وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ﴾ وفى هذا الأسلوب من أدب الخطاب في الحجاج والمناظرة ما لا يخفى، فهو لم يؤكد أن خصمه في

---

(١) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ. ٢٠٠٢م. جـ٨/٨٨ ، وينظر: الكشاف جـ٣/٥٨١

(٢) غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت جـ٢/٩٣٦

(٣) ينظر: تفسير يحيى بن سلام، تقديم وتحقيق: د/ هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م. جـ٢/٧٦٠ بتصرف

(٤) هذا القول منسوب في البحر المحيط لأبي عبيدة (ينظر: البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت١٤٢٠هـ جـ٨/٥٤٨)

ضلال، كما لم ينسبه إلى نفسه بل ردده بينهما، وهو يعلم أنه لأيهما، فترك أن يقول له: بل الذي غرّ قومه وأهلك جنوده، وأَضَلّ أتباعه أنت لا أنا، ولكنه قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ثم بالغ في ذمّ عدوّ الله بأجمل من الخطاب فقال: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول: إنه لا ينجح ولا يدرك طلبتهم الكافرون بالله تعالى، يعني بذلك فرعون، أي: إنه لا يفلح ولا ينجح لكفره به. (١)

فموسى عليه السلام لا شك عنده في أنه جاء بالهدى من عند ربه، وأنه ومن اتبعه سيكون لهم عاقبة الدار، إلا إنه أخرج كلامه مخرج الشك والاحتمال؛ لأنه عرف منهم العناد، فخاطبهم خطابا فيه مداراة واستدراج ، فإن من أظهر الحجة ولم يجد من خصمه اعتراضا عليها، وإنما وجد منه عنادا صح له أن يخرج كلامه على هذا النحو، وأن يقول ربي أعلم من معه الهدى منا، وهذا الخطاب من موسى عليه السلام بالإضافة إلى ما فيه من استدراج للخصم ليتفكر فيما بين يديه من آيات ومعجزات، فإن فيه كذلك وعيدا وتخويفا.(٢)

ولم يصرح موسى- عليه السلام- بأنه يريد نفسه، بالإتيان بالهداية لهم من عند الله- تعالى-وإنما ردد ذلك ليكفكف من عنادهم وغرورهم، وليرخى لهم حبل المناقشة، حتى يخرس ألسنتهم عن طريق المعجزات التي أيده الله- تعالى- بها، وليجعل للعقل في النقاش دورا في الحكم النهائي

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م. جـ١٩/٥٨٠

(٢) ينظر: تفسير الرازي جـ ٢٤/ ٥٩٨ بتصرف

وتغليب الأصح الأصوب، فهذه دعوة للرّوية والأناة، والتعقل، وإعمال الحكمة، وهذا أسلوب أدبي رفيع من الخطاب والجدل والمناظرة. (١)

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ (٢) فقد بينت الآية الكريمة أن هذا الرجل مؤمن بموسى وبما جاء به إلا أنه يكتم إيمانه خوفا من بطش فرعون وطغيانه، وعليه فإن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ خرج مخرج الشك والاحتمال، فمع علمه ويقينه بصدق موسى، إلا أنه أخرج كلامه على هذا النحو من التردد والشك؛ تلطفا مع فرعون وملئه، ومدارة لهم حتى لا يصاب منهم بأذىً أو مكروه، وهو في نفس الوقت يستدرجهم ليتفكروا فيما جاءهم به موسى من بينات، علَّهم ينظرون فيها بعين الإنصاف، فيتركوا عنادهم ويستجيبوا لما دعاهم إليه من عبادة الله وترك عبادة ما عداه.

يقول الماوردي: "ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه، ولكن تلطفاً في الاستكفاف واستنزالاً عن الأذى." (٣)

---

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للإمام الأكبر/ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط: الأولى١٩٩٨م. جـ١٠/٤٠٧ وينظر: التفسير المنير د/ وهبه الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: الثانية ١٤١٨هـ. جـ٢٠/١٠٤

(٢) سورة غافر الآية: ٢٨

(٣) النكت والعيون للماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ، بيروت جـ ٥/١٥٣

وفد جاء كلامه على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا،﴿ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ إن تعرّضتم له. و قال: بعض الَّذِي يَعِدُكُمْ وهو نبىّ صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؛ على سبيل الملاطفة والمدارة، وسلوك طريق الإنصاف في القول معهم، والمناصحة لهم، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال (وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)، وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه، ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أردفه يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا، فضلا عن أن يتعصب له، وتقديم كذبه على صدقه من باب الملاطفة و المدارة أيضا، حتى لا يظنوا أنه يريد الانتصار لموسى عليهم، وإنما أراد أن يظهر لهم اهتمامه بأمرهم ابتداءً، فيكون ذلك أدعى إلى قبولهم قوله واستجابتهم لنصحه.(١)

(١) ينظر: الكشاف جـ٤/١٦٣ بتصرف

المبحث الثاني

ما خرج مخرج الشك والاحتمال تحريراً للمعنى ومبالغة فيه

وقد يخرج الكلام المتيقن مخرج الشك والاحتمال قصدا للمبالغة في إثبات المعنى أو نفيه، وتلك عادة العرب في كلامهم، فإنهم قد يخرجون الكلام المتيقن في صورة المشكوك تحريرا للمعنى ومبالغة فيه، فيقولون مثلا: لا تتعرض لما يسخطني فلعلك إن تفعل ذلك ستندم، ومرادهم أنه يندم لا محالة، ولكنه أخرجه مخرج الشك تحريرا للمعنى ومبالغة فيه، أي: أن هذا الأمر لو كان مشكوكا فيه لا ينبغي أن تتعرض له، فكيف وهو كائن لا شك فيه؟![1]

ومن شواهد هذا الباب قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] جاء في البحر المحيط " تقدم أنهم مؤمنون بخطاب الله تعالى لهم {يا أيها الذين آمنوا} وجُمع بينهما بأنه شرط مجازي على جهة المبالغة؛ كما تقول لمن تريد إثارة نفسه: إن كنت رجلا فافعل كذا، قاله ابن عطية، أو بأن المعنى: إن صح إيمانكم، يعني أن دليل صحة الإيمان وثباته امتثال ما أمرتم به من ذلك، قاله الزمخشري، وفيه دسيسة اعتزال، لأنه إذا توقفت صحة الإيمان على ترك هذه المعصية فلا يجامعها الصحة مع فعلها، وإذا لم يصح إيمانه لم يكن مؤمنا، وهو مدعى المعتزلة. وقيل: [إن] بمعنى [إذا]، أي إذا كنتم مؤمنين قاله مقاتل بن سليمان، وهو قول لبعض النحويين

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الأولى١٣٧٦هـ. ١٩٥٧م. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي، جـ٤/١٥٩

(٢) سورة البقرة، الآية:٢٧٨

أن [إن] تكون بمعنى [إذا]، وهو ضعيف مردود ولا يثبت في اللغة. وقيل: هو شرط يراد به الاستدامة. وقيل: يراد به الكمال." (١)

وخلاصة ما ذكره أبو حيان أنه- تعالى- أثبت لهم في صدر الآية الإيمان، وخاطبهم بصفة الإيمان، ثم ذيل الآية بقوله: " إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " و (إن) في حقيقة أمرها مفيدة للشك، فيكون بذلك أول الآية قد أثبت لهم الإيمان، وآخرها قد شكك في إيمانهم، وقد جمع أبو حيان بينهما بأن الشرط ليس على حقيقته، وإنما هو مجازي لقصد المبالغة في أمر الربا، ويفاد مما ذكره أن الآية الكريمة مما خرج فيها اليقين مخرج الشك والاحتمال قصدا للمبالغة في تحريم الربا، حتى استحق آكله أن ينفى عنه وصف الإيمان. كما تقول لمن تريد إثارة نفسه: إن كنت رجلا فافعل كذا، وهذا القول قاله ابن عطية(٢) ونقله عنه أبو حيان ولاقى قبوله واستحسانه فقدمه على غيره من الأوجه، ولم يعقب عليه مما يدل على قبوله له.

وذكر الزمخشري(٣) أن الشرط هنا على حقيقته، وعليه فليست الآية من قبيل ما خرج فيه اليقين مخرج الشك، إلا أن هذا القول رده أبو حيان ووصفه بأن فيه دسيسة من اعتزال، لأنه بذلك ينفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة.

وإن كان من المفسرين المحدثين من يرى أن آكل الربا مخلد في النار فيقول: " وفي هذا إيماء إلى أن من لم يترك ما بقي من الربا بعد أن نهى

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت١٤٢٠ه. جـ٢/٧١٢

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ. جـ١/٣٧٤

(٣) ينظر: الكشاف، جـ١/٣٢٢

الله عنه وتوعد عليه، لا يعدّ من أهل الإيمان الذي له السلطان على الإرادة فهو مخلد في النار، وإيمانه ببعض ما جاء في الدين، وكفره ببعضه بعدم الإذعان له والعمل به، لا يعد إيمانا حقا وإن أقر بلسانه، إذ مثل هذا لا يعتدّ به ... " (١)

والظاهر أنه أراد من استحله، لأنه بذلك يكون منكرا لما هو معلوم من الدين بالضرورة لاستحلاله ما حرم الله.

أما من أكله مع إقراره بحرمته فهو عاص مرتكب للكبيرة، وأقول العلماء مفصلة في حكم مرتكب الكبيرة في كتب العقيدة.

وجاء في تفسير الخازن عند تفسير قوله تعالى:﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾" وقيل: إن الآية فيمن يعتقد تحريم أكل الربا ثم يأكله، فأمره إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه، وَمَنْ عادَ يعني إلى أكل الربا بعد التحريم مستحلّا له فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ."(٢)

وذكر مقاتل بن سليمان أن (إن) بمعنى (إذا) ورد ذلك أبو حيان لعدم ثبوته في اللغة.

وقيل: هو شرط يراد به الاستدامة. وقيل: يراد به الكمال، وحكاية أبو حيان لهذين الوجهين بلفظ قيل، يدل على ضعفهما، كما أن في ذكره لهما في مؤخر كلامه يدل على أنهما من نافلة القول.

كذا من شواهد خروج اليقين مخرج الشك قصدا للمبالغة قوله تعالى: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مسلمين ﴾(٣) و " رُبَّ " مفيدة للتقليل، ولا تكون

(١) تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، ط: الأولى، ١٣٦٥هـ. ١٩٤٦م. جـ٣/٦٧
(٢) سورة الحجر، الآية:٢
(٣) سورة البقرة، الآية:٢٧٨

مفيدة للتكثير، فأمَّا من قال إن " رُبَّ " يُعْنِيَ بها الكثير فهذا ضِدُّ مَا يَعْرِفُه أهلُ اللغةِ، لأن الحروف التي جاءت لمعنىً تكون على ما وضعت العَربُ. فربَّ موضوعة للتقليل، وكم موضوعة للتكثير، وإنما خوطبوا بما يعقلون ويستفيدون.(١)

وإنما زيدت "ما" مع " رُبَّ " ليليَها الفعل، وإن شئت جعلت «ما» بمنزلة «شيء» ، فكأنك قلت: رُبَّ شيء، أي: رُبَّ وَدٍّ يَوَدُّه الذين كفروا. (٢)

وبناء على ما سبق فكلمة (رُبَّ) مفيدة للتقليل وتمني الكافر للإسلام يكثر ويتصل فلا يليق به لفظة ربما، وهي كذلك تفيد الظن وتمني الكافر للإسلام مقطوع به، وقد وجهوا ذلك بعدة توجيهات:

أحدها: أن من عادة العرب أنهم إذا أرادو التكثير ذكروا لفظًا وضع للتقليل، وإذا أرادوا اليقين ذكروا لفظا وضع للشك؛ وذلك لإظهار التوقع والاستغناء عن التصريح بالغرض، فيقولون ربما ندمت على ما فعلت، ولعلك تندم على فعلك، وإن كان العلم حاصلا بكثرة الندم ووجوده بغير شك، فخوطبت العرب بما تعقله في التهدُّدِ.

ثانيها: أَنَّ هذا التقليل وإخراج الأمر المتيقن في صورة المشكوك للمبالغة في التهديد، ومعناه: أنه يكفيك قليل الندم ومظنة الوقوع في كونهما زاجران عن هذا الفعل، فكيف إذا كان الندم كثيرا ووقوعه مؤكدا لا شك فيه؟(٣)

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٨هـ. ١٩٨٨م. جـ ١٧٣/٣

(٢) معاني القرآن للأخفش، جـ٤١١/٢

(٣) ينظر: معاني القرآن للزجاج، جـ١٧٢/٣، ١٧٣ وينظر: تفسير الرازي جـ١١٧/١٩

يقول الإمام الزمخشري – رحمه الله– : " فإن قلت: فما معنى التقليل؟ قلت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل، لأنّ العقلاء يتحرّزون من التعرّض للغم المظنون، كما يتحرّزون من المتيقن، ومن القليل منه، كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودّون الإسلام مرة واحدة، فبالحرى أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودّونه في كل ساعة لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ" (١)

وفي الطراز أن الآية الكريمة وردت على جهة التقليل، وأخرجت مخرج الشك، والغرض التكثير والتحقيق، وإنما أخرجه مخرج التهكم والاستهزاء.(٢)

والأصل في "ربما" أن تدخل على الفعل الماضي، ودخلت هنا على المستقبل لأن وعد القرآن ووعيده حق، فجرى الكلامُ فيما لَمْ يكن منه كمجراهُ فِي الكائن.(٣)

ولما كانت "رب" عند الأكثرين لا تدخل على مستقبل فإنهم تَأَوَّلُوا " يود " في معنى ود وليس ذلك بلازم، فإنها قد تدخل على المستقبل لكنه قليل، ومنه قَوْلُ هِنْدٍ أُمِّ مُعَاوِيَةَ:

---

(١) الكشاف جـ٢/٥٧٠

(٢) الطراز ليحيى بن حمزة العلويّ، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٣هـ. جـ٣/٩١، ٩٢

(٣) معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي– دار المصرية للتأليف والترجمة، ط: الأولى، جـ٢/٨٢

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ غَدًا ... يَا لَهْفَ أُمِّ مُعَاوِيَةَ[١]

وَقَوْلُ جَحْدَرٍ:

فَإِنْ أَهْلِكْ فَرُبَّ فَتًى سَيَبْكِي ... عَلَيَّ مُهَذَّبٌ رَخْصُ الْبَنَانِ[٢]

فدخلت رب على المستقبل، لكن ذلك قليل بالنسبة إلى دخولها على الماضي.[٣]

ومن شواهد خروج الأمر المتيقن مخرج الشك لقصد المبالغة قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾[٤] فمحال أن يكون لله ولد، والنبي – صلى الله عليه وسلم– على يقين من تنزه الله سبحانه عن الولد، وهذا أمر معلوم بداهة، وعليه فمعنى قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ أي: قل جدلا وإفحاما.[٥]

فالآية الكريمة إذن وردت على سبيل الفرض والتمثيل مبالغة في نفي الولد، والمعنى: " إن كان للرحمن ولد، صح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه، وحجة واضحة تدلون بها، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم

---

(١) البيت لهند زوج أبي سفيان، أم معاوية، من أبيات قالتها في وقعة بدر، أوّلها: لله عينا من رأى .. هلكا كهلك رجاليه – يا ربّ باك لي غدا ... في النّائبات وباكيه " ينظر: شرح شواهد المغني للسيوطي، تحقيق: أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي،١٣٨٦ هـ.١٩٦٦م. جـ١/٤١٠)

(٢) البيت من قصيدة لجحدر بن مَالك الْحَنَفِيّ قَالَهَا وَهُوَ فِي سجن الْحجَّاج وأرسلها إِلَى الْيَمَامَة. (ينظر: خزانة الأدب للبغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط: الرابعة، ١٤١٨هـ. ١٩٩٧م. جـ١١/٢٠٨)

(٣) البحر المحيط جـ٦/٤٦٤

(٤) سورة الزخرف الآية:٨١

(٥) ينظر: التحرير والتنوير جـ٢٥/٢٦٣،٢٦٤

إلى طاعته والانقياد له؛ كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالا مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها " [١]

فهذا التعبير القرآني فيه مبالغة في الاستبعاد والنفي، وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما تقول بالدليل فأنا أول من يعتقده، مبالغة في استبعاده، أي لا سبيل إلى اعتقاده. وفيه كذلك ترفق في الكلام. [٢]

وذهب جماعة إلى أن " إن " هنا نافية[٣] والفاء بمعنى الواو، والتقدير: ما كان للرحمن ولد وأنا أول العابدين.[٤]

وذهب بعضهم[٥] إلى أنه لا يجوز أن تكون " إن " بمعنى " ما " لأنه يوهم نفي الولد عن الله فيما مضى دون ما هو آت، ورد أبو حيان بأنه لا يلزم

---

(١) الكشاف جـ٤/٢٦٥،٢٦٦

(٢) تفسير القرطبي، جـ١٦/١١٩

(٣) وهذا مروي عن ابن عباس والحسن والسدي وغيرهم " ينظر: البحر المحيط، ج٩/٣٩٠ "

(٤) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٣٨١هـ. جـ٢/٢٠٦، وينظر: مغني اللبيب لابن هشام: دار الفكر – دمشق، ط: السادسة، ١٩٨٥م، ص٣٤

(٥) هذا القول نسبه أبو حيان إلى مكي ابن أبي طالب " ينظر: البحر جـ٩/٣٩٠ ، وبالرجوع إلى تفسير مكي نجد ما نصه:"وقال السدي معناه: "لو كان له ولد كنت أول من عبده (بأن له ولداً) ولكن لا ولد له " فجعل "إن" للشرط، وهو اختيار الطبري، لأنك إذا جعلت "إن" بمعنى "ما " أوهمت أنك إنما نفيت عن الله سبحانه الولد فيما مضى دون ما هو آت."(ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، =

ذلك؛ لأن " كان " قد تستعمل فيما يدوم ولا يزول، كقولك: وكان الله غفورا رحيما، أي لم يزل، فالمعنى: ما كان وما يكون له ولد.(١)

= لمكي بن أبي طالب، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة، ط: الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، جـ١٠/ ٦٧٠٩) وبالرجوع إلى مشكل القرآن لمكي وجدت ما نصه " إن بِمَعْنى مَا وَالْكَلَام على ظَاهره والعابدين من الْعِبَادَة، وَقيل: إن للشّرط وَمعنى العابدين الجاحدين لقولكم إن لَهُ ولدا، وَقيل: ن للشّرط والعابدين على بَابه، وَالْمعْنَى: فانا أول مِمَّن عَبده = = على أَنه لَا ولد لَهُ" (مشكل إعراب القرآن لمكي ابن أبي طالب، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٥ه. جـ٢/٦٥١) ومن هنا يظهر لنا أن مكي جوز كون " إن " نافية" بل إن هذا هو اختياره على ما تشعر به عبارته في مشكل إعراب القرآن، وأما قوله في تفسيره: " لأنك إذا جعلت " إن " بمعنى " ما " أوهمت أنك إنما نفيت عن الله سبحانه الولد فيما مضى دون ما هو آت." فليست عبارته وإنما هو حكاية لتعليل الطبري لاختياره أن تكون " إن " شرطية لا نافية (ينظر: تفسير الطبري٢١/٦٥١)

(١) ينظر: البحر جـ٩/٣٩٠، ٣٩١

المبحث الثالث:

ما خرج مخرج الشك والاحتمال لقصد التهديد والوعيد

ومن الأغراض البلاغية التي يخرج لأجلها الأمر المتيقن في صورة المشكوك فيه قصد التهديد والوعيد، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[١] ففي قوله -سبحانه -: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ ترديد بينه – صلى الله عليه وسلم – وبينهم، ومعلوم أن هذا التهديد والوعيد مختص بهم، وأن عاقبة الدار الحسنى هي له عليه الصلاة والسلام، ولكنه أجري مجرى قول الشاعر:

فَأَيِّي مَا وَأَيُّكَ كَانَ شَرًّا ... فَسِيقَ إِلَى الْمَقَادَةِ فِي هَوَانِ[٢]

وقد علم ما هو شر وما هو خير، ولكنه أبرز في صورة الترديد؛ إظهارا لصورة الإنصاف ورميا بالكلام على جهة الاشتراك اتكالا على فهم المعنى.[٣]

وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصافٌ في المقال وأدبٌ حسنٌ، مع تضمنه شدّة الوعيد، والوثوق بأنّ المنذِر محق والمنذَر مبطل. [٤]

---

(١) سورة الأنعام الآية:١٣٥

(٢) ديوان العباس بن مرداس السلمي، جمع وتحقيق د/يحي الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط:الأولى١٤١٢ه.١٩٩١م. ص١٦٣ ، والشطر الثاني ورد في الديوان هكذا " فَسِيقَ إِلَى الْمَقَامَةِ لا يراها"

(٣) البحر المحيط، جـ٤/٦٥٤

(٤) الكشاف، جـ٢/٦٨، وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤١٨هـ. جـ٢/١٨٣

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاثة تهديدات: الأول: في قوله: ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ فالأمر فيه للتهديد، وفيه تسجيل عليهم بأنه لا يأتي منهم إلا الشر، حتى لكأنهم مأمورون به وهو واجب عليهم حتم لا يستطيعون الخروج عنه أو العمل بخلافه، وفيه كذلك مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعا عازما عليه فيحمله بالأمر على ما يؤدي إليه، والثاني: في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن فيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى، فهو نظير قوله سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾[١] ونظير قول الشاعر:

إِذَا مَا الْتَقَيْنَا وَالْتَقَى الرُّسْلُ بَيْنَنَا ... فَسَوْفَ تَرَى يَا عَمْرُو مَا اللَّهُ صَانِعُ[٢]

والثالث: في قوله: ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهو أيضًا تهديد، وفيه إشعار بأنهم هم الظالمون الذين لا يفلحون، ووضع الظلم موضع الكفر؛ لأنه أعم منه، وهو أكثر فائدة؛ لأنه إذا لم يفلح الظالم فكيف الكافر المتصف بأعظم أفراد الظلم ؟! [٣]

وسوف تستعمل في الوعيد والتهديد كثيرا، وقد تستعمل في الوعد، فمن استعمالها في الْوَعِيدِ قوله: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ من أضل سبيلا ﴾[٤] ومن استعمالها فِي الْوَعْدِ قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾[٥] على عكس السين فإن الأكثر فيها أن تستعمل في الوعد وقد تستعمل في الوعيد.[٦]

---

(١) سورة الرحمن، الآية:٣١
(٢) لم أقف على قائله.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٦٥٣/٤ وينظر: روح المعاني للألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ط: الأولى، ١٤١٥هـ، جـ٢٧٥/٤
(٤) سورة الفرقان، الآية:٤٢
(٥) سورة الضحى، الآية:٥
(٦) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، جـ١٧٤/٢

وهل تفيد السين و (سوف) تحقق الوقوع أم أنهما لمجرد الاستقبال؟[١] اختلف في ذلك على قولين: الأول: للزمخشري فهو يرى في بعض الآيات أن السين وسوف تفيدان تحقق الوقوع، وأن ما بعدهما واقع لا محالة، وبه قال الراغب في مفرداته في الحديث عن (سوف) [٢]

والثاني: لأبي حيان فقد رد على الزمخشري في بعض المواضع مبينا أن السين وسوف إنما تدلان على تخليص المضارع للاستقبال فقط.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[٣] يقول الزمخشري: "ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة، وإن تأخر إلى حين".[٤]

كذا في تفسير قوله تعالى:﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾[٥] يقول: " السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في قولك: سأنتقم منك، تعني أنك لا تفوتني، وإن تباطأ ذلك ..." [٦] ، إلى غير ذلك من المواضع التي ذكر فيها أن السين وسوف تفيدان تحقق الوقوع.[٧]

---

(١) ينظر: البرهان للزركشي، جـ٤/٢٨٣

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، ط: الأولى – ١٤١٢هـ. ص٤٣٦

(٣) سورة البقرة الآية:١٣٧

(٤) الكشاف جـ١/١٩٦

(٥) سورة التوبة الآية:٧١

(٦) الكشاف جـ٢/٢٨٩

(٧) وقد سرد الدكتور/ عبد الخالق عضيمة تلك المواضع في كتابه: دراسات لأسلوب القرآن الكريم وذلك في معرض دراسته للسين وسوف جـ٢/١٧٤

ورد ذلك أبو حيان فقال: " وفيه دفينة خفية من الاعتزال بقوله: السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، يشير إلى أنه يجب على الله تعالى إثابة الطائع، كما تجب عقوبة العاصي. وليس مدلول السين توكيد ما دخلت عليه، إنما تدل على تخليص المضارع للاستقبال فقط، ولما كانت الرحمة هنا عبارة عما يترتب على تلك الأعمال الصالحة من الثواب والعقاب في الآخرة أتى بالسين التي تدل على استقبال الفعل." (١)

كذا من الشواهد التي خرج فيها اليقين مخرج الشك لقصد التهديد والوعيد قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾(٢) فالمعنى: " ربكم أعلم بمن منا على الهدى، ومن ليس. أو من منا أهدى سبيلًا نحن أو أنتم؟ " (٣) يقول ابن كثير: " أي: منا ومنكم..." (٤)

وعليه فقد خرج الكلام مخرج الشك والغرض من ذلك التهديد والوعيد.(٥)

فالآية الكريمة تبشر المؤمنين أصحاب الأعمال الصالحة، بالعاقبة الحميدة، وتهدد المنحرفين عن طريق الحق بسوء المصير، لأن الله- تعالى- لا تخفى عليه خافية، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه.(٦)

---

(١) البحر المحيط، جـ٥/٤٦٠

(٢) سورة الإسراء الآية:٨٤

(٣) تفسير أبي منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م جـ٧/١٠٤

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، جـ٥/١١٣

(٥) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية٣/٤٨١، وينظر: تفسير ابن كثير ١١٣/٥

(٦) ينظر: التفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي، ٨/٤٢٠

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ والمعنى: " (سَيَعْلَمُونَ غَداً) عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ أصالح أم من كذبه؟ " (١)

وأورد الكلام على طريق الإبهام والاحتمال وإن كانوا هم المعنيين للإشارة إلى أنه مما لا يكاد يخفى، وجريا على أساليبهم، فهو على حد قول الشاعر:

فَلَئِنْ لَقِيتُكَ خَالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنَّ ... أَنِّي وَأَيُّكَ فَارِسُ الْأَحْزَابِ(٢)

وإنما عنى أنه فارس الأحزاب، لا الذي خاطبه. (٣)

وفي ذلك من التهديد والوعيد ما لا يخفى، فهو تهديد ووعيد ببيان انكشاف الأمر(٤)

والمراد بالغد وقت نزول العذاب الدنيوي بهم، وقيل: يوم القيامة فهو لمطلق الزمان المستقبل وعبر به لتقريبه، وعليه قول الشاعر:

ألا علاني قبل نوح النوائح ... وقبل اضطراب النفس بين الجوانح

وقبل غد يا لهف نفسي على غد ... إذا راح أصحابي ولست برائح (٥)

---

(١) الكشاف جـ٤/٤٣٧

(٢) لم أقف على قائله.

(٣) ينظر: البحر المحيط، جـ١٠/٤٤، وينظر: روح المعاني للألوسي، جـ١٤/٨٨

(٤) ينظر: تفسير مقاتل ، تحقيق: د/عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث – بيروت ط: الأولى – ١٤٢٣هـ، وينظر: تفسير الماتريدي، جـ٩/٤٥٢، ينظر: البحر المحيط، جـ١٠/٤٤٨٨

(٥) ديوان هدبة بن الخشرم العذري، جمع د/ يحي الجبوري، دار القلم، الكويت، ط: الثانية ١٤٠٦ه ١٩٨٦م ص٨٩

أي سَيَعْلَمُونَ البتة عن قريب مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ الذي حمله أشره وبطره على ما حمله أصالح أم من كذبه. (١)

وتسميته ليوم القيامة [غداً] للدلالة على قرب الوقوع وتحققه إذ لا مدافع له عن وقته، فالقيامة كغد لوقوعها لا محالة كوقوع غد، والكلام على سبيل التمثيل. (٢)

والأَشَرُ: شدّة البطر، والأشر أبلغ من البطر، والبطر أبلغ من الفرح، فإنّ الفرح وإن كان في أغلب أحواله مذموما، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾(٣) فقد يحمد تارة إذا كان على قدر ما يجب، وفي الموضع الذي يجب، كما قال تعالى: ﴿ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾(٤) وذلك أنّ الفرح قد يكون من سرور بحسب قضية العقل، والأَشَرُ لا يكون إلا فرحا بحسب قضية الهوى.(٥)

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي، جـ١٤/٨٨

(٢) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب، جـ٦/٤٠٥٥

(٣) سورة القصص الآية:٧٦

(٤) سورة يونس الآية٥٨

(٥) ينظر: المفردات للراغب، ص٧٨

المبحث الرابع

ما خرج مخرج الشك والاحتمال لقصد التوبيخ والتعريض وإلزاما للخصم بالحجة

وقد يخرج الكلام المتيقن مخرج المشكوك فيه لتوبيخ الخصم وإلزامه بالحجة، فيكون ذلك أدعى إلى الإذعان والقبول، ومن شواهد هذا الباب قوله تعالى حكاية عن إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١] لما خوفوه في مكان الأمن ولم يخافوا في مكان الخوف، أخرج الكلام في صورة الاحتمال، وإن كان قد علم قطعا أنه هو الآمن لا هم.[٢]

والاستفهام هنا مفيد للإنكار والتقرير معا، والمعنى: ما لكم تنكرون عَلَيَّ الأمْنَ في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمْنَ في موضع الخوفِ، والحق أنكم لستم آمنين، بل الذين آمنوا أحق بالأمن.[٣]

وإنما ساق الكلام على هذه الصورة من الشك والاحتمال لإلزامهم بالحجة، ولحملهم على الاعتراف باستحقاقه عليه السلام لما هو عليه من الأمن، وبعدم استحقاقهم لما هم عليه.[٤]

---

(١) سورة الأنعام الآية:٨١

(٢) ينظر: البحر المحيط، جـ٤/٥٧٠،٥٧١

(٣) ينظر: البرهان جـ٢/٣٤٥، وينظر: للباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي، تحقيق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ط:الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م، جـ٨/٢٥٨

(٤) ينظر: روح المعاني للألوسي، جـ٤/١٩٥

وجيءَ باسم التفضيلِ في قوله: ﴿أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ وهو على غير بابه، والمراد: أينا الحقيق بالأمن، ولكنه عبر باسم التفضيل المُشعِر باستحقاقهم للأمن؛ لاستنزالهم عن رُتبة المكابرةِ والاعتسافِ بسَوْق الكلام على سَنَن الإنصاف، فهم يدعون أنهم الحقيقون بالأمن، وأنه هو الحقيق بالخوف، فاستنزلهم عن منتهى الباطل إلى الوسط النظري بين الأمرين، وهو أي الفريقين أحق، كما أن فيه احترازا عن تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله بالكلية. (١)

وآثار القرآن التعبير بقوله سبحانه: ﴿ فأيُّ الفريقين أحقُّ ﴾ ولم يقل: أيُّنا أحقُّ نحن أم أنتم؛ إلزاماً لخصمه بما يدَّعيه عليه، ولتأكيد الإلجاء إلى الجواب بالتنبيه على علة الحكم والتفادي عن التصريح بتخطئتهم التي ربما تدعو إلى اللجاج والعناد، مع الإشارة بما في النظم إلى أن أحقية الأمن لا تخصه عليه السلام بل تشمل كل موحد ترغيبا لهم في التوحيد.(٢)

وذيل – سبحانه– الآية الكريمة بقوله:﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: أَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إن كنتم تعلمون من من الفريقين أحق به، أومحذوف للعلم به وعدم الحاجة لذكره، وتقديره: إن كنتم من أهل العلم والبصيرة في هذا الأمر فأخبروني بذلك، وفي هذا إلجاء لهم إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحماقة والجهل. (٣)

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود، جـ٣/١٥٦، وينظر: روح المعاني للألوسي جـ٤/١٩٥، وينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، جـ٧/٤٨٢

(٢) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، جـ٥/٢٢، وينظر: روح المعاني، جـ٤/١٩٥

(٣) ينظر: تفسير المنار، جـ٧/٤٨٢

ثم عقب سبحانه بقوله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وهذه الآية جواب من إبراهيم عليه السلام عن الاستفهام الوارد في قوله: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ ذلك أنه لما استفهم استفهام عالم بمن هو الآمن وأبرز الكلام في صورة السائل الذي لا يعلم، استأنف الجواب عن السؤال، وإنما تولى جواب استفهامه بنفسه ولم ينتظر جوابهم؛ لكون الجواب مما لا يسع المسئول إلا أن يجيب بمثله، وهو تبكيت لهم، فصرح به إذ سكتوا عن الجواب مفحمين مبالغة في تبكيتهم، وهذا على أنه من كلام إبراهيم عليه السلام، وقيل بل هو كلام مستأنف من الله تعالى لابتداء حكم، فتكون الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تصديقا لقول إبراهيم، أو قاله – سبحانه– على جهة فصل القضاء بين إبراهيم وقومه، وقيل هو من كلام قوم إبراهيم أجابوا بما هو حجة عليهم، فهم تذكروا لما ذكرهم وراجعوا عقولهم وفطرتهم، فاعترفوا بالحق كما اعترفوا حين كسّر أصنامهم.(١)

ومما خرج فيه الأمر المتيقن مخرج الشك والاحتمال لقصد توبيخ الخصم وإلزامه الحجة قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ فقد قُرأت " أن " بالفتح والكسر(٢) فمن فتحها فالمعنى: أفنضرب عنكم الذكر صفحاً لأن كنتم، فهي للتعليل، ومن كسرها فعلى معنى الاستقبال، والتقدير: إن تكونوا مسرفين نضرب عنكم الذكر، فهي للشرط.(٣)

---

(١) ينظر: البحر المحيط، ٥٧١/٤ وينظر: التحرير والتنوير، جـ٣٣١/٧ ، وينظر: المنار جـ٤٨٢/٧

(٢) في " أن " ثلاث قراءات: الأولى: بفتح الهمزة، أي: من أجل أن كنتم، والثانية بكسر الهمزة على أنها شرطية، والقراءة الثالثة: إذ كنتم، بذال بدلاً من النون (ينظر معجم القراءات د/عبداللطيف الخطيب، دار سعد الدين جـ٣٤٨،٣٤٩/٨)

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤٠٥/٤ بتصرف

ورد بعضهم قراءة من قرأ بكسر الهمزة من " أن " وحجته أنهم إنما وبخوا على شيء قد ثبت ومضى؛ فهذا موضع المفتوحة لأنها لما مضى. والمكسورة معناها لما يأتي. فكيف يوبخون على شيء لم يفعلوه بعد. (١)

وأجيب عن ذلك بأن (إن) الداخلة على كان لا تقلبه للاستقبال عند أكثر النحاة، ولذا قيل: " أَنْ " هنا بمعنى " إذ ". وأيد بأنه قرئ به، وأنه يدل على التعليل فتوافق قراءة الفتح معنى، ولو سلم فالظاهر من حال المسرف المصرّ على إسرافه بقاؤه على ما هو عليه، فيكون محققا في المستقبل أيضا على القول بأنها تقلب كان كغيرها من الأفعال. (٢)

هذا وعلى قراءة من قرأ بالكسر تكون شرطية ويكون الكلام من باب إخراج المحقق مخرج المشكوك فيه. يقول الزمخشري – رحمه الله – "فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية، وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ قلت: هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي، وهو عالم بذلك، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق: فعل من له شك في الاستحقاق، مع وضوحه استجهالا له." (٣)

وخروج الكلام على هذا النحو من الشك والاحتمال لتوبيخهم على الإسراف، وتجهيلهم في ارتكابه، فكأنه شيء لا يقع من عاقل، لاشتماله على ما يقلع الشرط عن أصله، فالأدلة متوفرة على صدق القرآن، وهذا من شأنه

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب، جـ١٠/٦٦٢٧

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي، جـ١٣/٦٦ وينظر: حاشية الشهاب جـ٧/٤٣٢

(٣) الكشاف ٤/٢٣٧

أن يزيل إسرافهم، وفي هذا ثقة بحقية القرآن وضرب من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه.(١)

وتلك هي طريقة القرآن في محاورة خصومه ومجادلتهم، فهو أشرف بيان وأهداه، وأكمله وأعلاه، فالمتأمل في هذه الآية يجد فيها شدة التنبيه على تركهم الحق والإعراض عنه. مع امتنانه عليهم بالذكر والتحذير، بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من تقريع شديد.(٢)

وإقحام " قوما " قبل مسرفين للدلالة على أن الإسراف صار طبعا لهم وبه قوام قوميتهم.(٣)

ومن شواهد هذا الباب أيضا قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾(٤) فالله تعالى علم أنهم مرتابون إلا أنه- سبحانه- أورد ما هو متيقن في صورة المشكوك فيه جريا على عادة العرب فِي خطابهم، كقولك: إن كنت إنسانا فافعل كذا. وأنت تعلم أنه إنسان، فخاطبهم الله تعالى على عادة خطابهم فيما بينهم. وقيل: "إن" ههنا بمعنى: " إذا " وعليه قول الشاعر:

وسمِعت حلْفتها التي حلفت إن كان سمعُك غيرَ ذي وقرِ(٥)

والمعنى: إذا كان سمعك (٦)

---

(١) ينظر: التسهيل لابن جزي ٢٥٤/٢ وينظر: عروس الأفراح ،تحقيق: الدكتور/ عبد الحميد هنداوي-المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت ط: الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م. جـ١/٣٢٦، وينظر: التحرير والتنوير ١٦٤/٢٥

(٢) ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط: الخامسة ١٩٩٧م. ص٢٨٢ وينظر: النكت للرماني، ص١٨٠

(٣) التحرير والتنوير ١٦٤/٢٥

(٤) سورة البقرة الآية:٢٣

(٥) ديوان المسيب بن علس، تحقيق د/عبد الرحمن محمد الوصيفي، مكتبة الآداب ط:الأولى ١٤٢٣ه.٢٠٠٣م. ص٧٧

(٦) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت ط: الأولى، ١٤١٥هـ.١٩٩٤م. جـ١/١٠١

وفي خروج هذا الكلام مخرج الاحتمال والشك إشارة إلى أن القرآن بلغ في الوضوح والفصاحة إلى حيث لا ينبغي لمرتاب أن يشك فيه، والأمر كذلك؛ لأن العرب مع بلوغهم في الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه، وذلك يشهد بأنه بلغت هذه الحجة في الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه، فلما كان ريبهم واقعاً في غير محله- إذ لو تأملوا أدنى تأمل لزال ريبهم لوضوح الأمر وسطوع البرهان- كان ريبهم كأنه مشكوك فيه ومتردد في وقوعه، فلذلك وضع حرف التوقع والاحتمال في الأمر الواقع، لبعد وقوع الريب وقبحه عند العقلاء، وهذا فيه ما فيه من التوبيخ لهم والتعريض بهم.(١)

وقد دلتهم الآية الكريمة على الطريقة القاطعة للريب والمزيلة للشك، وهو أن يجتهدوا في معارضته ويبذلوا فيها غاية جهدهم، حتى إذا عجزوا عنها، تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة، فتلزمهم بذلك الحجة.(٢)

ومن هنا نعلم أن الإتيان بالمتيقن في صورة المشكوك فيه مع تحقق المخاطب علم المتكلم بتحقق الشرط توبيخا على تحقق هذا الشرط، فالله تعالى عالم بشكهم لكنه أخرج الكلام على هذا الصورة توبيخا لهم على وقوع الشك مع توافر الأدلة التي تدفعه وتزيله. (٣)

كذا من المواضع التي خرج فيها اليقين مخرج الشك لقصد التعريض والتوبيخ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾(٤) فإن من آمن بالله وأقام الصلاة وآتى

(١) ينظر: تفسير الرازي، جـ٢/٢٦٦، وينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، جـ١/٧٦
(٢) ينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، جـ١/٣٦، ٣٦
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، جـ١/٣٣٦ بتصرف
(٤) سورة التوبة الآية ١٨

الزكاة ولم يخش إلا الله فإنه من المهتدين لسلوكه طريق الهداية، وأي هداية بعد ذلك، إلا أن الكلام خرج على صورة من الشك والاحتمال، فجاء التعبير بـــ (عسى) وإنما أبرز اهتداءهم مع ما بهم من الصفات السنيةِ في معرِض التوقعِ؛ لقطع أطماعِ الكفرةِ عن الوصول إلى مواقف الاهتداء والانتفاعِ بأعمالهم التي يحسَبون أنهم فيها محسنون، ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون. فإن المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالاتِ، إذا كان أمرُهم دائراً بين لعل وعسى، فما بالُ الكفرة وهم هُمْ، وأعمالهم أعمالُهم. وفيه لطفٌ للمؤمنين وترغيبٌ لهم في ترجيح جانبِ الخوفِ على جانب الرجاءِ ورفض الاغترار بالله تعالى. (١)

وجاء التعبير بـــ " من " المفيدة للتبعيض فقال سبحانه: ﴿ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أَيْ: من الذين سبقت لهم الهداية ولم يأت التركيب: أن يكونوا مهتدين، بل جعلوا بعضا من المهتدين، وكونهم منهم أقل في التعظيم من أن يجرد لهم الحكم بالهداية. (٢)

فالآية الكريمة فيها تعريض بالمشركين وتوبيخ لهم؛ لزعمهم أن القيام على أمر السقاية وعمارة المسجد الحرام مغنية عن الإيمان بالله واليوم الآخر وغيرها من أعمال البر.

---

(١) ينظر: الكشاف جـــ٢/٢٥٥ وينظر: أنوار التنزيل للبيضاوي جـــ٣/٧٥

(٢) ينظر: البحر المحيط جـــ٥/٣٨٧

المبحث الخامس

ما خرج مخرج الاحتمال قصداً للعتاب وهزاً للنفوس

ومن الأغراض التي يخرج لأجلها الكلام مخرج الشك والاحتمال قصد العتاب، ومن شواهد هذا الباب قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ ﴾[١] " وهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد كبر عليه إعراضهم، ولكن جاء الشرط معتبرا فيه التبين والظهور" [٢] والمعنى: ظهر وتبين أنه قد شق عليك إعراضهم.

والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. [٣]

وإنما جاء به على هذا النحو من الشك والاحتمال؛ للإشارة إلى أن النبي- صلى الله عليه وسلم- كان الأولى به أن لا يلقي بالًا لإعراضهم، وأن لا يعبأ بكفرهم، وأن لا يكلف نفسه ما لا تطيق في دعوتهم، فليس عليه إلا البلاغ، وهذا لون من العتاب رقيق فيه تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم- وترفق به.

والمقصود أن يقطع النبي طمعه عن إيمانهم، وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر. [٤]

---

(١) سورة الأنعام الآية:٣٥

(٢) البحر المحيط جـ٤/٤٩٢

(٣) الكشاف جـ٢/٢٠

(٤) مفاتيح الغيب للرازي، جـ١٢/٥٢٠

يقول ابن عاشور: " وجيء في هذا الشرط بحرف (إن) الذي يكثر وروده في الشرط الذي لا يظن حصوله للإشارة إلى أن الرسول- عليه الصلاة والسلام- ليس بمظنة ذلك ولكنه على سبيل الفرض." (١)

وجواب قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ محذوف، تقديره: فافعل، وهو مع جوابه: جواب لقوله: ﴿وإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾. و في تقدير الجواب المحذوف ثلاثة أوجه ذكرها الطيبي:

أحدها: المقدر: "أتيت" على الإخبار. وعليه فـ "إن" بمعنى " لو"، ليؤذن أن فيه تعليق إسلام قومه بالمحال. والمعنى: بلغت من حرصك على إيمانهم بحيث إن قدرت أن تأتي بالمحال لأتيت. وتلخيصه: بيان حرصه على إسلام قومه على المبالغة.

وثانيها: المقدر: " فافعل " على الأمر. وفيه نوع توبيخ. وتلخيصه: بيان حرصه على تبني مطلوب القوم من الاقتراحات. وهذا الوجه أبلغ، لأنه إذا وبخ على طلب ما اقترحوه من الآيات تعريضاً بهم، كان توبيخهم على اقتراحهم الآيات أولى وأجدر وأنسب إلى قوله: ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ لصراحته في التعريض.

وثالثها: " لفعلت" على الإخبار أيضًا. (٢)

وفي الوجه الثاني نظر؛ لأن التوبيخ لا يليق بالجانب النبوي، فحمله على العتاب أولى، وخفف من حدته أنه ذكر أن المقصود بهذا التوبيخ التعريض

---

(١) التحرير والتنوير جـ٧/٢٠٣، ٢٠٤

(٢) حاشية الطيبي على الكشاف المسماة بـ " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب " الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط: الأولى، ١٤٣٤هـ. ٢٠١٣م. جـ ٦/٧٤

بتوبيخ المشركين. وإن كان من باب الأدب مع النبي – صلى الله عليه وسلم– أن نحمل الآية على العتاب للنبي والتوبيخ للمشركين.

ومن شواهد ما خرج مخرج الشك هزًا للنفوس للقيام بما هو مطلوب منها، وتنبيها لها على أهمية ذلك المطلوب، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١] فهذا تعزية من الله لنبيه –صلى الله عليه وسلّم– وللمؤمنين على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أحد، وحثّ منه إياهم على قتال عدوهم، ونهى عن العجز والفشل.[٢]

والشرط في قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ فيكون المقصد هز النفوس وإقامتها، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ فيكون الشرط على بابه دون تجوز، ويترتب من ذلك الطعن على من ظهر نفاقه في ذلك اليوم، وعلى من تأود إيمانه واضطرب يقينه، والمعنى: لا يتحصل الوعد إلا بالإيمان، فالزموه.[٣]

وفي هذا ما يدل على قيمة الإيمان وأهميته إذ هو السبيل إلى النصر والعلو وعدم الهوان، فصحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بوعد الله وقلة المبالاة بأعدائه.[٤]

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٥] وقد علم الله تعالى أنهم عقلاء، لكن علقه على هذا الشرط على سبيل الهز للنفوس،

---

(١) سورة آل عمران الآية:١٣٩

(٢) الكشف والبيان للثعلبي جـ٣/١٧٢

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية جـ١/٥١٣

(٤) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت ط: الأولى، ١٤١٩هـ. ١٩٩٨م. جـ١/٢٩٥

(٥) سورة آل عمران الآية:١١٨

وفيه تنبيه لهم وتحذير من مولاة الكافرين، والمعنى: قد بينا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ومولاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين.(١)

" والمقصود بعثهم على استعمال العقل في تأمل هذه الآيات وتدبر هذه البينات" (٢)

هذا والسياق يدل على أن المؤمنين قد عقلوا تلك الآيات التي بينها الله لهم وتفطنوا لها وانتفعوا بها، فالآية الكريمة بينت أنهم قد نهوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم – أي من غير المؤمنين – ثم جاء عقبها قوله سبحانه: ﴿ هَآأَنتُمْ أولاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بالكتاب كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ... ﴾ وهذه الآية تدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوي المؤمنين عن الإيمان، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين. ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم، ولم يكن أمامهم إلا النفاق، لذلك قالوا: «آمنا». (٣)

ويرى الإمام الطيبي أن قوله: ﴿ هَآأَنتُمْ أولاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بالكتاب كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ... ﴾ دال على تماديهم في الغفلة وثباتهم عليها بعد تلك البيانات الشافية، والمعنى: ها أنتم بعدما تلونا عليكم ما تلونا ثابتون على غفلتكم وخطاياكم، تحبونهم ولا يحبونكم، مع

(١) ينظر: البحر المحيط جـ٣/٣١٨، وينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، جـ١/٤٩٧
(٢) تفسير الرازي، جـ٨/٣٤١
(٣) تفسير الشعراوي، جـ٣/١٧١٣

أنكم تؤمنون بكتابهم كله ولا يؤمنون بشيء من كتابكم؛ ما غيرتم من أحوالكم شيئاً ولا أثر فيكم ذلك التحذير، ولا نجح فيكم ذلك الوعظ البليغ.[١]

ولذا فإنه حمل قوله تعالى: (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) على التوبيخ للمؤمنين وأنهم إن لم يرجعوا من ذلك ولم ينتبهوا من رقدة الغفلة، كانوا كمسلوبي العقول.[٢]

(١) حاشية الطيبي، جـ٤/٢٣٥، ٢٣٦

(٢) حاشية الطيبي، جـ٤/٢٣٥

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالنظر في كتاب الله وتأمل آياته، والوقوف أو بالأحرى التعرف على شيء من خصائصه وأسراره، له متعة خاصة لا تدانيها متعة، ومذاق – إن صح التعبير– مميز لا يعادله مذاق، وقد توقفت من خلال هذا البحث مع ظاهرة من ظواهره، وهي ظاهرة إخراج الأمر المتيقن في صورة المشكوك فيه، وحاولت جاهدا جمع ما تفرق، وإيضاح ما غمض، واستجلاء ما خفي من الأغراض البلاغية لهذه الظاهرة، ويمكن تلخيص ما توصل إليه البحث من نتائج في النقاط الآتية:

أولا: ظاهرة تخريج الأمر المتيقن في صورة من الشك والاحتمال، من بين الظواهر التي تسترعي الانتباه في الكتاب العزيز؛ لما فيها من لفت للانتباه واستثارة للذهن والعقل ليفكر أو ليبحث عما وراء الحجب والأستار، فينشط للوقوف على مرمى هذا الخروج وغرضه.

ثانياً: تنبه علماؤنا لهذه الظاهرة في القرآن الكريم، وأشاروا إليها في مؤلفاتهم، وكان ممن تنبه إليها الرماني والعلوي وابن جني وغيرهم.

ثالثاً: تخريج الأمر المتيقن في صورة من الشك والاحتمال وسيلة من وسائل الإقناع؛ لما فيها من التنزل مع الخصم ومجاراته ومخاطبة عقله، عن طريق تحفيزه بطرح الأسئلة، وإقامة البراهين، والانتقال من المسلمات إلى النتائج محل الشك والإنكار، ومخاطبة الفطرة عن طريق التذكير بالنعم وسردها.

رابعاً: بتأمل الآيات التي خرج فيها الكلام مخرج الشك والاحتمال، نجد أن هذا الخروج جاء لتأدية أغراض كثيرة ومتنوعة، وأكثر هذه الأغراض شيوعا هو توبيخ المعاند والتعريض به، ومجاراة الخصم لاستدراجه وإلزامه بالحجة حتى ينقاد ويذعن، ولتقرير المخاطب وبيان قلة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه، إلى غير ذلك من الأغراض.

خامساً: تخريج الأمر المتيقن في صورة من الشك والاحتمال أدب عال من آداب الحوار والمناظرة، ذلك أن أحد المتناظرين إذا رمى صاحبه بالخطأ يغضبه، وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر، وعند اختلاله لا مطمع في الفهم فيفوت الغرض، أما إذا أخرج كلامه مخرج المتردد في القضية الباحث عن الحق مع يقينه فيما عنده، فإن الخصم يترك تعصبه، ويجتهد في النظر ليصل إلى الحق.

سادساً: تخريج الأمر المتيقن في صورة من الشك والاحتمال طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصافٌ في المقال وأدبٌ حسنٌ ، مع تضمنه شدّة الوعيد، والوثوق بأنّ المنذِر محق والمنذَر مبطل.

فهرس المراجع

١- أدب الحوار في الإسلام لفضيلة الإمام الأكبر/ محمد سيد طنطاوي، نهضة مصر ١٩٩٧م.
٢- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط: الخامسة، ١٩٩٧م
٣- أمالي ابن الشجري، تحقيق: الدكتور/ محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩١م
٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الأولى ١٤١٨هـ
٥- البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت١٤٢٠ه
٦- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط:الأولى١٣٧٦هـ ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه
٧- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م.
٨- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط: الأولى.
٩- تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٠- تفسير أبي منصور الماتريدي، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
١١- تفسير الجلالين، دار الحديث – القاهرة، ط: الأولى.

١٢- تفسير الشيخ الشعراوي - مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧م
١٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م
١٤- تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، ط: الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م
١٥- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م
١٦- التفسير المنير د/ وهبه الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: الثانية ، ١٤١٨هـ
١٧- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت ط: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
١٨- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، للإمام الأكبر/ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط: الأولى١٩٩٨م
١٩- تفسير مقاتل ، تحقيق: د/عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث - بيروت ط: الأولى - ١٤٢٣هـ
٢٠- تفسير يحيى بن سلام، تقديم وتحقيق: الدكتوره/ هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م
٢١- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ١٤٢٠هـ٢٠٠٠م
٢٢- حاشية الشهاب المسماة: (عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي) دار صادر، بيروت.

٢٣- حاشية الطيبي على الكشاف المسماة بـــ " فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب " الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط: الأولى، ١٤٣٤هـــ - ٢٠١٣م
٢٤- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية لعبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط: الثالثة ٢٠٠٧م
٢٥- خزانة الأدب للبغدادي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط: الرابعة، ١٤١٨ هـــ ١٩٩٧م
٢٦- الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الرابعة.
٢٧- الخطاب الحواري في القرآن، لروبجي لخضر- بحث بمجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري بالجزائر، والبحث على موقع دار المنظومة.
٢٨-الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
٢٩- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة.
٣٠- ديوان العباس بن مرداس السلمي، جمع وتحقيق د/يحي الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط:الأولى١٤١٢ه.١٩٩١م.
٣١- ديوان العرجي، جمع وتحقيق د/ سجيع جميل الجبيلي، دار صادر بيروت، ط: الأولى١٩٩٨م
٣٢- ديوان المسيب بن علس، تحقيق د/عبد الرحمن محمد الوصيفي، مكتبة الآداب ط:الأولى ١٤٢٣ه٢٠٠٣م

٣٣- ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي بيروت، ط: الثانية١٤١٦ه ١٩٩٦م

٣٤- ديوان هدبة بن الخشرم العذري، جمع د/ يحي الجبوري، دار القلم، الكويت، ط: الثانية ١٤٠٦ه ١٩٨٦م

٣٥- روح المعاني للألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت ط: الأولى، ١٤١٥ه

٣٦- شرح شواهد المغني للسيوطي، تحقيق: أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي،١٣٨٦هـ.١٩٦٦م.

٣٧- الطراز ليحيى بن حمزة العلويّ ، المكتبة العصرية – بيروت، ط: الأولى١٤٢٣هـ.

٣٨- الطراز ليحيى بن حمزة العلويّ، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٣هـ

٣٩- عروس الأفراح ،تحقيق: الدكتور/ عبد الحميد هنداوي-المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت ط: الأولى، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣م

٤٠- غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت

٤١- فتح القدير للشوكاني دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط: الأولى ١٤١٤هـ

٤٢-الكشاف للزمخشري دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٧هـ.

٤٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م

٤٤- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي، تحقيق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ/ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ط:الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م

٤٥- اللزوميات لأبي العلاء شرح وتحقيق/ مجموعة من المحققين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٤م

٤٦- المثل السائر لابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

٤٧- مجاز القرآن لأبي عبيدة، تحقيق: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجى – القاهرة ١٣٨١هـ

٤٨- المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ

٤٩- المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الأولى ١٤٢٢هـ

٥٠- مشكل إعراب القرآن لمكي ابن أبي طالب، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٥ه

٥١- معانى القرآن للأخفش، تحقيق: الدكتوره/هدى محمود قراعة، مكتبة: الخانجي، القاهرة، ط:الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م

٥٢- معاني القرآن للفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي- دار المصرية للتأليف والترجمة – ط: الأولى
٥٣- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ط: الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م
٥٤- معجم القراءات د/عبداللطيف الخطيب، دار سعد الدين
٥٥- المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة
٥٦- مغني اللبيب لابن هشام: دار الفكر – دمشق، ط: السادسة، ١٩٨٥م
٥٧-مفاتيح الغيب للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة ١٤٢٠هـ
٥٨- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، ط: الأولى - ١٤١٢هـ
٥٩- من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، د/ معتصم بابكر مصطفى، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالدوحة، ط: الأولى١٤٢٤ه ٢٠٠٣م
٦٠- ميزان العمل للإمام أبي حامد الغزالي، تحقيق : د.سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط: الأولى، ١٩٦٤
٦١- النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط: الثالثة، ١٩٧٦م

٦٢- النكت والعيون للماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت
٦٣- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لمكي بن أبي طالب، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م
٦٤- الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الكتب العلمية، بيروت ط: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

فهرس المحتويات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١.	ملخص البحث	٨٧٣٧
٢.	Summary	٨٧٣٨
٣.	مقدمة	٨٧٣٩
٤.	تمهيد: جهود علماء اللغة والبيان في الكشف عن هذه الظاهرة	٨٧٤٢
٥.	الفصل الأول: ما خرج مخرج الشك وأثره في إقناع المخاطب ودحض شبهة المعاند	٨٧٤٦
٦.	مدخل	٨٧٤٦
٧.	أدوات الإقناع فيما خرج مخرج الشك والاحتمال	٨٧٤٨
٨.	أولًا: مجاراة الخصم وإرخاء العنان له	٨٧٤٨
٩.	ثانياً: تحفيز العقل	٨٧٥١
١٠.	ثالثاً: مخاطبة الفطرة	٨٧٥٦
١١.	الفصل الثاني: ما خرج مخرج الشك والاحتمال: أسراره البلاغية ولطائفه البيانية	٨٧٥٨
١٢.	مدخل	٨٧٥٨
١٣.	المبحث الأول: ما خرج مخرج الشك تلطفاً في الخطاب واستدراجا للمخاطب	٨٧٥٩
١٤.	المبحث الثاني: ما خرج مخرج الشك تحريرا للمعنى ومبالغة فيه	٨٧٦٧
١٥.	المبحث الثالث: ما خرج مخرج الشك لقصد التهديد والوعيد	٨٧٧٥
١٦.	المبحث الرابع: ما خرج مخرج الشك لقصد التوبيخ والتعريض	٨٧٨١
١٧.	المبحث الخامس: ما خرج مخرج الشك قصدا للعتاب وهزاً للنفوس	٨٧٨٨
١٨.	الخاتمة	٨٧٩٣
١٩.	فهرس المراجع	٨٧٩٥
٢٠.	فهرس المحتويات	٨٨٠٢